الدكتور رضا توفيق

آراؤه في السلالة، وشكل الحكومة، والحرية، والديمقراطية، والاريستوقراطية، والفن والشعر، والفن والطبيعة، والفلسفة

لالياس ابو شبكه

ليس من السهولة في شيء أن آتي — في هذه الصفحات القليلة من المقتطف — على جميع المراحل التي اجازها صديقي الكبير الفيلسوف الشاعر الدكتور رضا توفيق بك في حياة طويلة طافحة بجلائل الاعمال وألوان الاضطراب، فالإقدام على عمل كهذا يستغرق وقتاً طويلاً ومجلدات ضخمة لان حياة هذا الرجل إنما هي ملحمة كثيرة الوقائع، متعددة الصور، تبدأ عند اعلان الحرب بين تركيا وروسيا، تلك الحرب الطاحنة التي كانت نتائجها وخيمة على مستقبل رأس الشاعر، وتنتهي — وقد لا يجوز لنا ان ننهيها — في مطلع الثلث الثاني من هذا القرن العشرين

ولد الدكتور رضا توفيق من أب تحدّر من سلالة ألبانية فكان آخر عقب من اولئك الفرسان الاشداء الذين نشأوا في الجبال فاستمدوا الصلابة من الصخور والصراحة من الطبيعة التي لا تتصنّع ولا مشاحة في أن الشاعر ورث عن أجداده المتحمسين بعض خلال لا يزال يحترمها وبعض هفوات كانت شؤماً عليه في حياته السياسية، على أن هذه المثنويات المزعومة تقوم على فضائل جبلية كتعشق الاستقلال المطلق، والتمرّد على كل سلطة لا تدعمها عاطفة احترام للرتب الانسانية. وكانت أمّهُ شركسية تمتّ الى قبيلة « شابسيغ » المتحدرة من القفقاس، وقد يكون الدمُ التركيّ المتمشي في عروق الشاعر متصلاً بهِ من جدتهِ لابيهِ، وهي تركية من مكدونيا

فهذا الخليط في الدم يجعلنا نجاري الشاعر في إنكاره النظرية القائلة بنقاوة النسل، وهي ضلال فظيع تكاد عدواهُ تعمّ هذا القرن العشرين الذاهل المضطرب! ... فهو يذهب الى ان نقاوة النسل إنما هي نظرية خلقت لدعم جنسية مصطنعة لتبرير سلطان ممهّد هو ينبوع جميع الفتن التي تهدّد السلام العالمي. ننسة طائفة من العلوم كالتاريخ والاثنولوجيا والانطروبولوجيا وغيرها تبرهن على أن البشر الحاليين قد جبلتهم حروبٌ متواصلة منذ عشرات من القرون، وأن العوامل التي تجعل من شعب أمةً متفوقة انما هي عديدة، ولا يخفى أن تمازج الشعوب إنما هو اهمّ هذه العوامل واشدها تأثيراً. فالشعب اليوناني القديم، وهو أنبغ الامم التي درجت على سطح هذه الكرة واكثرها تفوقاً من ناحيتي الثقافة والخلق، كان مزيجاً من شعوب مختلفة، وفي هذا برهان واضح على خطإ النظرية القائلة بنقاوة السلالة

ولنعد الى الدكتور رضا توفيق فنقول انهُ ولد في « جسر مصطفى باشا » وهو مدينة صغيرة تقوم على ضفاف مريج — وقد اصبحت اليوم مدينة بلغارية معروفة باسم « سارىبرود » — في ٢٣ رمضان ١٢٨٣ الموافق للعام ١٨٦٨ ، ولما بلغ السابعة من عمره جاء بهِ والده الى اسطنبول ، وكانت الحرب بين تركيا وروسيا على وشك الانطلاق ، فأتيح له ان يشهد تلك الحوادث المشؤومة التي كانت وبالاً على تركيا ، ولا يزال يذكر خلع السلطان عبد العزيز والسلطان مراد الخامس وجلوس عبد الحميد على العرش وغير ذلك من الحوادث الخطيرة

وفي أثناء تلك الحوادث كان الشاعر منصرفاً الى الدرس في قلب الطبيعة التي اوحت اليهِ تعشقها ولا مشاحة في ان للطبيعة يداً على شاعريته التي ارتفع بها الى مستوى كبار الشعراء في تركيا . وفي العام ١٨٨٢ انتظم في المكتب السلطاني ، الاَّ ان طبيعته الميالة الى الاستقلال ، المتمردة على كلّ نظام دقيق ، وعلى كلّ سلطة لا تستطيع أن توحي اليهِ بالثقة والاحترام جعلت حياتهُ في تلك الجامعة صعبة لا تطاق . واخيراً في العام ١٨٩٠ اتهم بالائتمار على الحكومة فألقي القبض عليهِ وسجن اربعين يوماً . ومنذ ذلك الحين بدأت حياته السياسية التي دامت ثلاثين سنة . على اننا نضرب صفحاً عن ذلك العهد المضطرب من حياته ، ونكتفي بأن نقول ان الدكتور رضا توفيق يعيش في البلاد العربية منذ احدى عشرة سنة مغموراً بعطف صاحب السموّ الامير عبدالله . وهو يقيم اليوم على ضفاف الشاطئ الوردي المضطجع عند اقدام مدينة جونية في تلك البقعة الرمادية من لبنان ، المتوّجة بالاكمات السبع الممتدة من جبل حريصا الى طرف خليج جونية والشاخصة شخوصاً ازليًّا الى الشفق البعيد المتموّج بجميع ألوان الشمس الصريحة

والدكتور رضا توفيق شيخ يدلف الى العقد السابع من العمر ، على ان الطبيعة خلعت على هيكله الجبار كلّ ما في وسعها فلم تستطع الايام أن تزيل عن جسده بريق الشباب . ففي عضلاته القوية ، تلك العضلات المفتولة الشبيهة بعضلات المصارعين ، وفي قامته المستطيلة كالاسطوانة ، واندلاق صدره الى الامام ، واسترسال كتفيه الى الوراء ، وفي اتزان مشيته العصبية ، ولفتاته السريعة المتيقظة ، في ذلك كله عناصر من الشباب الجبار تخونها شعور بيضٌ هي اكليل السنين

جبهة نافرة عالية تشطر الوجه الى شطرين متساويين أغدقت قمتها على الرأس شعراً غزيراً ترامت أمواجه الى سفح الرقبة ونفرت منها موجتان فانتشرتا مشمئتين كلّ منهما على أذن . وفي سفح هذه الجبهة المنحدرة يعبّس حاجبان متسقان جيلان تطمئنّ تحتهما مقلتان ساذجتان على ما فيهما من البريق الذكيّ هما مقلتا الفيلسوف الشاعر ، وانك لترتاح الى تلك الاشعة الغريبة المنبعثة من وراء نظارتيه الذهبيتين والمنتشرة شعاعاً على تينك الوجنتين المشربتين بألوان خمرية كألوان الشفق قبيل الغروب ، انك لترتاح الى ما يطفو عليها من الوجدان النيّر المغمور بأعذب ما في القلب البشري من زيد الرحمة والحب . وأول ما يقف نظرك عليه في ذلك الرأس المردود الى السلالة العبرانية القديمة ،

او اذا شئت الى فلاسفة اليونان في عهد سقراط وافلاطون لحية كثيفة تتحدر كالشلال الى مفرش الثندوتين ثم يتجمع بعضها على بعض فتغير الوجه هيئة نبي خرج من التوراة ، وفي حنجرة هذا الرجل لا أعلم أية كمنارة أم أي أوتار ساحرة يهزك منها في الكلام صوت ، عذب تشد به غصة كالتي تصدر عن رجع النحاس ؛ فهو اذا كلمك أطربك بحديثه وصوته معاً . والفيلسوف الشاعر رضا توفيق مبسوط العلم باللغات الفرنسية والانكليزية والفارسية واليونانية والعربية

ولننتقل الآن الى آراء الدكتور رضا توفيق في الادب والاجتماع ، ولا سيما المسائل المتعلقة منهما بالحرية والواجبات والحقوق والدين والحكومات وغيرها من المسائل التي يعبر عنها البعض بصيغ مبهمة لا يستقيم لها وزن والتي كثيراً ما تنجم عنها مجادلات عقيمة مزعجة

﴿ شكل الحكومة ﴾ لا يزال كثيرون ، منذ نحو من قرن الى اليوم ، يعلقون شأناً كبيراً بشكل الحكومة حتى ان جميع الانقلابات الثورية تكاد تكون وليدة تلك العقيدة الذاهبة الى ان الحكومات تتوقف على اشكالها . غير ان الدكتور رضا توفيق يخالف هذا المذهب قائلاً انهُ وهم محض ، وان الاختبار اظهر له في مواقف متعددة ان كل شيء يتوقف على الحرب او على السلم نشأة علاقة دقيقة بين الادارة المطلقة او المحافظة او الديكتاتورية والحروب العامة او المحلية . اما الشكل فليس سوى بطاقة او اعلان او صورة لا طائل تحتها ، ولقد قال احد الشعراء الفرنسيين ان شكل الحكومة يشغل افكار المجانين ، ولكن افضل الحكومات هي افضلها ادارة [1]

وكان كانت وسبنسر يقولان : « ان افضل الحكومات هي اقلها ادارة »

﴿ الحرية ﴾ ان كلمة « حرية » تدعو الى الالتباس كجميع الالفاظ المبهمة او كمعظمها . ثم ان هناك اصطلاحين للحرية ؛ الاول هو الاصطلاح النفساني وآخر الاصطلاح السياسي الاجتماعي . ولما كانت النفسانية psychologie نوعاً من العلم الطبيعي فانها لتضطر الى انكار الحرية ؛ اذ ان كل نوع من انواع العلوم يجتهد في شرح جميع العوامل التي يدرسها بأسباب من شأنها ان تحدد هذه العوامل ، اذن فجميع العلوم مجبرة بحكم المنطق على الاقتناع بأن كل حادث انما هو نتيجة اسباب عديدة لا نعرف الا بعضها

ولقد اتيح للبعض ان يزعم ان الذي اصطلح على تسميته بـ « الارادة البشرية » او « الارادة المطلقة » انما هو السبب الاهم الذي يحدد أعمالنا ، على ان النفسانية العلمية تبرهن لنا على ان الارادة نفسها ليست سوى عامل محصل من عدة اسباب نفسية فيزيولوجية تشترك بدون علم منا في عمل دماغنا ، ولما كان العمل الدماغي هو الذي يتيح لنا فرض تعديلات على الافعال المنعكسة التي تسببها العوامل الخارجية فمن البديهي ان يخيل الينا اننا احرار

ولقد تناقش العلماء المفكرون طويلاً حول هذه المسألة العسيرة لاجل تقرير المسؤولية البشرية

(1) La forme de l'etat préoccupe les fous, Le mieux administré est le meilleur de tous

من الوجهتين الدينية والحقوقية ، وظلوا يتناقشون حولها قروناً طوالاً . ثم انقسموا الى ثلاث فئات او مدارس : (المعتزلة) وهي القائلة بالارادة المطلقة ، واصطلاحها (ان شاء ترك) و (الجبرية) او اتباع مذاهب القدر الذين كانوا يذهبون الى ان المقدَّر لا يستطيع النزول على سنة التعديل . و (اهل السنّة) الذين كانوا يعتقدون ان للانسان « ارادة جزئية » يستطيع معها الاختيار بين مقدورين لا مناص منهما كالخير والشر مثلاً . وهذا المذهب الاخير هو المعروف اليوم بمذهب «الحرية في الاختيار» وهو الذي يعتنقه الدكتور رضا توفيق بحجة ان العلم يوافق اهل السنّة في مذهبهم لان الارادة المركزية هي في الدماغ

اما الحرية السياسية فهي احترام الشريعة الوضعية مع التمتع الممكن بالافعال التي لم يستدركها التشريع المستبد . وخلاصة القول هي خضوع اختياري لقانون يرمز الى ارادة شعب مثقف ، وليس خضوعاً جبريًّا لارادة سلطان او حاكم فرد اريستوقراطيًّا كان او ديموقراطيًّا ، او لارادة وسوليّ او ديكتاتور . واما الحرية الاجتماعية فهي حقّ الفرد في ان لا يخضع لتقاليد بلد بشرط ان لا يكون تمرّده مخالفاً للشريعة الوضعية او للاصطلاح الاخلاقي الادبي المقرر في العالم

﴿ الديموقراطية ﴾ ذلك هو رأي الفيلسوف رضا توفيق في الحرية ، اما رأيه في الديموقراطية فيلخص بما يلي :

يراد بالديموقراطية حكومة الشعب . ولكن أيستحيل ذلك ؟ لقد حصر الفيلسوف العظيم شوبنهور هذه المسألة في برهان ذي حدّين ، فقال: « انه لمن الظلم المحرّم ان يحكم شعب بالرغم منه » وهذا حقّ على أنهُ أضاف إلى ذلك قوله: « وان الشعب ولدٌ ويظل ولداً ويحكم بالرغم منه » . وهذا يبعث على القنوط . الا ان القرآن — لحسن الحظ — أعطى أفضل حلّ لهذه المسألة العسيرة ، فقد جاء فيه قول الآية : « ولقد كرّمنا بني آدم . . . » إذن فالانسان مكرّم أيًّا كان ، ويلزمني ان أحترم قيمته الانسانية التي لم يستمدها لا من ملكٍ ولا من رئيس جمهورية بل من نعمة الله نفسه الذي خلقه على صورته . ولقد اضاف النبيّ قوله : (سيّد القوم خادمهم) وإذن فأول شرط من شروط السيادة ان يكون السيد خادم الشعب الذي أولاه السيادة عليه

﴿ الاريستوقراطية ﴾ يراد بالاريستوقراطية ، حكم الشعب بأفضل شخص بشري . على ان الاريستوقراطية هي اليوم نوع من الامتياز الاقطاعي الوراثي يقوم على (حق الفتح) الذي لا يوفر لمدّعيه جميع الخلال والفضائل التي تجعل من الرجل شخصاً متفوقاً تفوقاً حقيقيًّا يرفعهُ الى مستوى أفضل انسان في الامة . ومثل هؤلاء الاشخاص لا يستطيعون ان يحكموا بألقابهم وأنسابهم ورفوفهم أمة بأسرها جديرة بانجاب طائفة من النوابغ كما هي الحال اليوم في الامم الراقية . اذن فالاريستوقراطية التاريخية لن يحقّ لها التمتع بالسلطة الوراثية في ادارة بلد ما لم تخلق نوابغ . على ان ثمة اريستوقراطية طبيعية لا تتعدّى كونها فردية اي اريستوقراطية نبوغ موهوب ،

كاريسطوقراطية سقراط وكانت وابن رشد في الفلسفة ، وغليليو وباستور واينشتين في العلوم ، وشكسبير وجوته وهيجو في الشعر ، وبيتهوفن وجونود وفردي في الموسيقى ، وهلم جرّ . ولقد جاء القرآن الكريم (وفضّلنا بعضهم على بعض)

﴿ الفن والشعر ﴾ يراد بالشعر الصحيح الذي يعبر ، بلغة سليمة مألوفة والناء موسيقي وجيه وأسلوب ذي عصمة في الصياغة ، عن بعض شواعر حارة تهزّ الروح البشرية هزًّا عميقاً . وهذه الشواعر — ينبوع الهاماتنا البديعية التي لا تنضب — لا تتأتى الا في اوقات العوارض النفسانية التي لا علاقة لها قط بأغراض الحياة الحيوانية المادية ويرجع ذلك الى ان هزة نفسانية شديدة تثير دخيلة الرجل على حين غرة فترحّب آفاقها المظلمة المتحيرة وتوقظ فيها جميع الخصائص الفعلية . وفي هذه الحالة من الاستنارة الداخلية يستطيع الرجل ان يرى ويميز بوضوح وجلاء عوامل العاصفة العاطفية التي تحرك روحه . عند هذا يتراءى العالم الخارجي نفسه لعينيه المنذهلتين في اجمل صورة من تآلفه ويكشف له في جميع تبدلاته المؤثرة العلاقات الحميمة التي تربطه بالوجود الكلّي ربطاً لا انحلال له . فالفني الحقيقي ، وهو خالق في الصنع ، يتناول جميع مجازاته ورموزه وكناياته من تلك العلاقات الحميمة نفسها التي تجعله دائماً يتحد في حياته والطبيعة الجميلة

وهذا الاتحاد المكين يضيء في روح الشاعر الحقيقي كما تضيء اشعة الشمس اذ يشمل الوجود بأسره ، فهو مقرّ التفاؤل الذي يحوّل الحياة الاكثر دعة الى سعادة كلية فالجمال الذي يوحي الحب ليس سوى التأثير الهادىء المضيء يعالجه ذلك التآلف الكلّي العجيب في روحنا المحورة . والتعريف البياني للمزاج الفني انما هو بالتدقيق تلك الحاسة المتطرفة ولكن السليمة ، التي يتاح لها عند اقل داعٍ ان تحدث في النفس تأثيرات شديدة خصبة ، فالعمل الفني شعراً كان او موسيقى او نقشاً ما هو في التحليل الاخير سوى المادة التي تنجم عن مثل تلك الحاسات البديعية بشكل من التعبير يمتّ الى الموضوع بصلب شديد . اما البصيرة ، ويراد بها النظر الصائب المحكم للعوامل الداخلية . فهي اظهر حالات نفسية الفن . وهذا النظر الصائب يوفر للشاعر عُدّة عمله كلها ، كالشعور والفكرة والصور الاستعارية والرموز وأخيراً جميع هذه الاشياء التي تؤلف عملا فنيًّا والتي لا توجد كما هي في العالم الخارجي . فالفني النابغ لا يسأل العالم الخارجي الا الاشياء الجامدة ليستعملها وسائل للتعبير فقط

تلك هي — في خطوطها العريضة — نظرية الدكتور رضا توفيق في الفن ، وهي نظرية خطيرة تجعل من الصدق قاعدة الفن الاساسية وشرطه اللازم ، وتبرهن على ان طبيعة الفن انما هي الحياة وان الفن الحقيقي متحد مع الحياة الكلية ، الينبوع الذي لا ينضب لاي إلهام بديعي ، وترينا اخيراً بجلاء ووضوح أن الفن انما هو غير الصناعة ، وانهُ ليس ثمة شعر قديم وحديث ، بل هناك شعرٌ حقيقي ومزيّف ، فالشعر الحقيقي لا يتصل بالزمان ولا بالمكان فهو خالد كالنفس ودائم كالحياة الشاملة

﴿ الفن والطبيعة ﴾ الطبيعة هي مجموعة الوجود بما فيه من الشرائع المعروفة او غير المعروفة

والحوادث المدركة او غير المدركة . وقد قيل ان الطبيعة هي أمهرُ الصنّاع . صحيح ، ولكنها تعالج صناعتها او فنّها على ما تشاء ، وجميع اعمالها حيّة . وقيل ان الطبيعة هي ينبوع الفن الذي لا ينضب . وهذا صحيح ، على ان الفنّ هو الثاني قبل كل شيء ، فهو عمل النبوغ البشري ، ومن الهذيان أن يزعم البعض ان تمثال الزهرة ، أو تائية ابن الفارض ، او الحمراء في غرناطة ، أو صورة من صور رفائيل ، او نغمة من نغمات بيتهوفن هي طبيعية كالشجرة او كالزهرة

يزعم الطبيعيون أن الطبيعة هي أكمل مثال ينبغي للفني ان يقلّدهُ ، ويزعم الخياليون انهُ ينبغي للمرء ان يتصوّر الاشياء تصوّراً أو أن يكتشف من وراء هذه الاشياء الفكرة الجوهرية المختبئة فيها ، ويسعى الرمزيون أن يهتدوا الى الصيغة الرمزية الاكثر بلاغة وتبياناً ليتاح لهم منها التعبير عما يرونهُ في الطبيعة ، إن بالريشة وإن بالقلم او بالقطعة الموسيقية . وهلمَّ جرًّا

كل هذا حسن ، على ان الشاعر رضا توفيق لا يرى في هذا كله سوى تعبير عن شواعر بديعية ليس لها أقل علاقة بالنفس او بالحياة الداخلية . وقد قال : « إني لا أؤثر أن اعتبر بأبيات من الشعر وبانشاء سليم ليس عن طلوع الشمس او مغيبها مثلاً بل عن الشعور القويّ الذي يوحيه اليَّ مشهد الشمس الجميل . فبهذا التعبير اكون قد أتيت على تبيان حالتي النفسية وليس على تبيان حالة الشفق والمناظر عند طلوع الشمس او مغيبها » إذن فالطبيعة النفسية هي التي تمثل دور الفني وليس الطبيعة الافقية التي ليست سوى عامل او سبب من اسباب التهييج

﴿ الفلسفة ﴾ يذهب الدكتور رضا توفيق هذا المذهب الشائع وهو ان الفلسفة علم يبحث في ايجاد نظريات حول المسائل التي تطرحها معميات الحياة على ذكائنا المذهول . وهي ايضاً فنّ يستعمل لبناء مذهب عقليّ على نظريات مختلفة . اذن ليست الفلسفة علماً دقيقاً بل هي تاريخ الافتراضات البشرية حول اسرار الوجود . واذن فهي محاولة خاسرة او نوع من انواع التسلية العقلية

ولكن عند ما نشعر بحاجة ملحّة الى تقرير تصرفاتنا في الحياة بمبدإ عقلي تصبح الفلسفة وهي أخت المنطق وترتفع الى مستوى الجدّ

كان الاغريق يفصلون الفلسفة عن الدين ويذهبون الى انها علم معرفة السعادة ، على انهم لم يستطيعوا الاتفاق على طبيعة السعادة . ويقول الدكتور رضا توفيق ان السعادة انما هي عقيدة او حالة نفسية لا علاقة لها بالفلسفة ، وما عدا ذلك فهو يعتنق مذاهب كبار الفلاسفة وعلى الخصوص مذهبي اريسطو وزرادشت ، النبي الفارسي القديم

تلك خلاصة الآراء التي استطعت ان اكشفها في الشاعر التركي الفني خلال الاحاديث المتباينة التي تناولها في كل سانحة . وهي في معظمها آراء وجيهة لها وزنها الادبي وقيمتها ، فضلاً عن انها تشير اشارة واضحة الى عقلية وروحانية ناضجتين لا نلمس مثلهما بين ادبائنا ومفكرينا الا نادراً

بيروت